

## النخب وثقافة التعصب في الخليج العربي: إضاءة ميدانية

يفرض التعصب المذهبي والقبلي حضوره الكبير في مختلف تجليات الحياة الاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة، وتأتي موجة هذا التعصب مترافقة مع الأحداث السياسية الجسام المتواترة في المنطقة والتي أدت إلى إيقاظ المشاعر الطائفية المذهبية حيناً والقبلية حيناً آخر إلى درجة أصبح التعصب اليومي ملمحاً من ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية في هذه البلدان. وتشهد اليوم هذه المشاعر التعصبية تكاثفاً مريباً بتأثير نسق من العوامل التربوية والاجتماعية والثقافية التي خرجت عن سياقها الوطني والإنساني إلى مسارات الانغلاق والتفوق والتعصب.

أ.د. علي أسعد وطفة \*

النفوس، تعصب مذهبي طائفي تارة وقبلي عائلي تارة أخرى، وقد يتداخل التعصب المذهبي بالتعصب السياسي والتعصب القبلي في متوالية هندسية بلغت غاية تعقيدها. ويأخذ هذا التعصب مساراته ومداراته في وسائل الإعلام المكتوبة والمقروءة والمسموعة، كما يتأجج في المواقع الإلكترونية، ويستفحل في الصراعات السياسية ويحتدم في المجالس الأدبية، ويأخذ صولته وجولته في دورة الانتخابات، ويتكاثف حضوره في مختلف المؤسسات السياسية سواء في مجلس الأمة أو الدوائر الانتخابية أو في عمق الممارسات السياسية بكافة أشكالها وتجلياتها.

فالتعصب ظاهرة لا يحتاج معها الباحث إلى كثير من التنصير ليستكشف حضورها المدوي في المجتمع عبر القول والممارسة والفعل في الإعلام والصحافة والتلفزة والشبكات العنكبوتية كما في أفواننا وأفغاننا وممارساتنا اليومية.

وليس غريباً أن نتحدث عن وجود هذه الظاهرة، فهي ضاربة الجذور في تاريخنا وثقافتنا، فالناس فيما مضى كانوا يتحدثون عن

إن التعصب ظاهرة تاريخية تضرب جذورها في عمق التاريخ الإنساني وهو يتشكل عبر مسارات سياسية وثقافية واجتماعية، لكن هذا التعصب يأخذ في المجتمعات العربية صورة معقدة يتداخل فيها الطائفي بالمذهبي والقبلي بالعشائري والسياسي بالاجتماعي، حيث يصعب على الباحث في كثير من الأحيان أن يفكك خيوط هذا التعصب، ويرسم مساراته، ويحدد هويته وطبائعه.

ومهما كان الأمر فإن التعصب يشكل في مختلف تجلياته خطراً على الوجود والهوية والمجتمع، كما يشكل تحدياً سياسياً وثقافياً كبيراً يجب على شعوب المنطقة مواجهته وتفكيك عناصر وجوده وتحديد أبعاده وسيروراته وألياته ودينامياته وبناء الاستراتيجيات الثقافية التي يمكنها أن تصده، وأن تحد من غلوائه وتلجم هيجانه.

### إشكالية الدراسة:

ليس خافياً على أحد اليوم كباراً وصغاراً، شيوخاً وشباباً، نساءً ورجالاً، أننا نعيش في مناخ تعصبي ينخر العقول وينهب القلوب ويتلف

التعصب يشكل في مختلف تجلياته  
خطراً على الوجود والهوية والمجتمع



### دور المثقفين ورجال الدين والإعلام بنشر التعصب في المجتمع من وجهة نظر طلاب جامعة الكويت

الترتيب	بنود التعصب	موافق في المائة	محايد في المائة	معارض في المائة	المجموع ن = 1194
١	بعض المثقفين ينشر التعصب في المجتمع	٨٨,٨	٣,٢	٨,٠	١٠٠
٢	بعض رجال الإعلام ينشر التعصب في المجتمع	٨٥,١	٣,٢	١١,٧	١٠٠
٣	بعض رجال الدين ينشر التعصب في المجتمع	٨٣,٤	٣,٢	١٣,٤	١٠٠
	المجموع	٨٥,٨	٣,٢	١١,٠	١٠٠

هذا الافتراض لا يستقيم علمياً ما لم نبحت في عمق المجتمع ونستجلي آراء أفرادها والمنتسبين إليه. ودراسة التعصب ومدى حضوره في المجتمع وآليات اشتغاله توجب علينا تقصي الحياة الاجتماعية ممثلة بأفرادها عبر نسق من الفعاليات المنهجية والعلمية. ومن أجل هذه الغاية وقع خيارنا على المؤسسة الجامعية لاختبار فرضيتنا هذه في حضور التعصب أو لنقل في استكشاف رؤية طلاب الجامعة لدى حضور هذا التعصب وانتشاره في المجتمع الكويتي. فالطلاب في الجامعة يمتلكون تجربتهم الخاصة في استكشاف أوضاع المجتمع الذي ينتسبون إليه، ويشكلون طليعة واعية متمرسة بقضايا المجتمع وحياته، وينبني على ذلك أن الطلاب يمتلكون القدرة على تقديم صورة حقيقية لأوضاع المجتمع وتجلياته. ومهما كان الأمر فإنه من الأهمية بمكان استكشاف رأي طلاب جامعة الكويت بأبعاد وحدود ظاهرة التعصب الطائفي والقبلي في المجتمع عبر خبرتهم وحياتهم الاجتماعية والثقافية عبر نسق من الأسئلة المنهجية التي تتحرى هذه الظاهرة بأبعادها وتجلياتها المختلفة.

#### أسئلة الدراسة:

تتوزع أسئلة الدراسة على ثلاثة أسئلة أساسية موجهة لطلاب جامعة الكويت وهي:

- ١- هل يقوم بعض المثقفين بنشر التعصب في المجتمع؟
- ٢- هل يقوم بعض رجال الإعلام بنشر التعصب في المجتمع؟
- ٣- هل يقوم بعض رجال الدين بنشر التعصب في المجتمع؟

الطائفية والقبلية همساً وعلى نحو خجل، فلا ترتفع الأصوات، ولا تجأر الحناجر بها علناً، لكن الغريب اليوم هو أنه أصبحت للمذهبية منابر وللقبلية مراحل تتادي إليها، وتبعث على إيقاظها وتأجيج مشاعرها بلهب الحقد والكراهية.

وتبدأ إشكالية الدراسة في أمر يفيض بالتناقض الظاهري، فعندما كنا نسأل طلابنا: من منكم يكره الطائفية؟ من منكم يكره القبليّة؟ من منكم يكره التعصب؟ كانوا دائماً يصبون اللعنة على الطائفية والقبلية والعنصرية والتعصب، ويرون في كل أشكال التعصب لعنة ضد الإنسان والإنسانية؟ لكننا عندما كنا نسألهم من منكم منزّه عن أي سلوك تعصبي طائفي أو قبلي أو مذهبي؟ وهنا تبدأ نظراتهم الحائرة الجفلة من هذا السؤال الصاعق. فنحن نكره الطائفية لكننا نمارسها! نكره المذهبية ونهتدي بها! نكره التعصب ونرفضه، لكنه يتجلى في سلوكنا وحياتنا شيئاً أم أينا. فالتعصب ظاهرة والظاهرة تفوق قدرة الأفراد في المجتمع على تجاوزها! فنحن نكره الفقر وقد نكون فقراء، ونكره الألم لكننا نتألم على مبدأ الإكراه. وهكذا نحن نكره الطائفية والقبلية لكننا نقع في فخهما. وحال التعصب الطائفي كحال الورم الخبيث الذي نكرهه ولا نتمناه لأعدائنا، لكنه قد يسكن فينا رغم أنوفنا. فالتعصب داء سرطاني ابتليت به الأمة وهي كارهة له، ونحن جميعاً نتمنى أن يزول التعصب الذي يسكن بين جوانحنا، لكننا نقع في أسرته ويفتك بنا كضحايا له.

إن التعصب موجود في المجتمع كما يرى الناظرون والملاحظون، لكن



يقوم التعصب الطائفي على ولاء الفرد الكلي أو الجزئي للقيم والتصورات الطائفية أو المذهبية

### حدود الدراسة:

أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت ١١٩٤ طالباً وطالبة من طلاب جامعة الكويت في العام الدراسي ٢٠١٠-٢٠١١. ويقتصر البحث على آراء الطلاب في ظاهرة التعصب ومدى انتشاره ومؤثراته.

### مفهوم التعصب واشكاليته:

يعد مفهوم التعصب من المفاهيم الإشكالية التي تتسج حضورها الكبير في أدبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويمكن لنا في هذا السياق أن نميز في التعصب أشكالاً مختلفة ومتباينة، فهناك التعصب العرقي والتعصب الثقافي والتعصب الديني والتعصب الطائفي. ورغم ذلك كله فإن التعصب في مختلف صورته وتجلياته يؤكد على جوهر واحد قوامه الانقياد العاطفي لأفكار وتصورات تتعارض مع الحقيقة الموضوعية.

ويعود مفهوم التعصب إلى الممارسات الخرافية للكهنة والعرافين في بلاد الإغريق القديمة، حيث كان الكهنة يمارسون أفعالاً مخيفة في طقوسهم الدينية، إذ يقومون بتقطيع بعض أعضائهم الجسدية، ويفجرون دماء أجسادهم في نسق ابتهالات وممارسات مرعبة ومجنونة. واستمرت هذه الظاهرة في عهد الرومان، ووظف هذا المفهوم للتعبير عن الطاقات الأسطورية الخارقة والتي تكمن في أعماق البشر، ولاسيما هذه الأفعال السحرية والممارسات الأسطورية التي تتجاوز حدود تصورات العقل في هذه المراحل السحيقة من التاريخ الإنساني.

ويعرف قاموس العلوم الاجتماعية التعصب بأنه (غلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة بحيث لا يدع مكاناً للتسامح، وقد يؤدي إلى العنف والاستماتة). والتعصب كما تشير أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة يشكل موقفاً أو اتجاهاً ينطوي على التهيؤ الفردي أو الجماعي للتفكير أو الإدراك أو الشعور والسلوك بشكل إيجابي أو سلبي تجاه جماعة أخرى أو أي من أفرادها.

ومن وأهم المعاني التي ينطوي عليها هذا المفهوم أنه يستخدم للإشارة إلى حال الأفراد الذين يقعون تحت سيطرة عمياء لعقيدة ما سياسية أو دينية أو أيديولوجية، كما أنه يشير إلى حال هؤلاء الذين تأخذهم انفعالات مجنونة يستثيرها ولاؤهم وإيمانهم بعقيدة سياسية أو دينية. فمفهوم التعصب يأخذ اليوم طابع حكم سلبي يطلق على بعض الأنماط السلوكية الانفعالية المفرطة التي تضع المتعصب في حالة خضوع مطلق لفكرة أو عقيدة قد تكون خاطئة أو صحيحة.

### التعصب الطائفي:

الطائفة جماعة من البشر، يجمعهم جامع مشترك مثل المهنة والعرق أو الانتماء الديني أو الموقف. وتعرف الطائفة (بأنها حالة من الانقسام والتشتت داخل الدين الواحد وهي مؤشر إلى الصراع القائم في داخله).

ويجب التمييز هنا بين الطائفة كهيئة اجتماعية والطائفة بوصفها حالة تعصبية، حيث تتجلى الطائفة بوصفها (فعالاً تفتياً، لا يتوقف

الأدب العربي، ومن أجمل الأوصاف التي قيلت فيه قول الشاعر:  
**وما أنا إلا من غزيرة إن غوت**  
**غويت وإن ترشد غزيرة أرشد**  
وخير تعبير عن التعصب القبلي ما ورد في المثل العربية، حيث تقول  
العرب (كذاب ربيعة خير من صادق مضر، ولأن يحكم فينا الحكمان  
ببعض الحق وأحدهما من ربيعة خير لنا من أن يحكما بكل الحق  
وكلاهما من مضر) وفي هذا القول مثال صارخ على طبيعة التعصب  
القبلي الذي أخذ مجده في حياة العرب الجاهليين.

وينبغي علينا أن نفرق بين القبيلة والقبيلة، فالقبيلة كيان اجتماعي  
حاضر في وجودنا الاجتماعي، أما القبيلة فهي عقلية وسلوك تعسبي  
وسم مجتمعاتنا منذ مئات السنين ولا يزال، وهي رابطة موحدة الغرض  
مبنية على التحالف بقدر ما هي مبنية على النسب  
والقربا، وتمثل عقلية عامة مستمدة من الانتماءات  
والولاءات المنغرس في وجدان الجماعة، وبالتالي فإن  
نزعها نحو إثارة قبليتها هي تعبير عن هويتها. وتمثل هذه  
الخصائص الأساس المادي للتعصب القبلي. فقد أشار ابن  
خلدون في مقدمته إلى مفهومي التفكير والحركة الناجمين  
عن الصراع بين البدو والحضر باعتبارهما نمطي معيشة  
متعارضين. وعلى أساس هذه القاعدة تحاول كل قبيلة أن  
تقوي من شأنها لتملك الحكم والهيمنة والسيطرة على  
الأخرين. ويرى ابن خلدون في هذا السياق (أن القبيلة إذا قوي سلطانها  
ضعف سلطان الدولة، وإذا قوي سلطان الدولة ضعف سلطان القبيلة).  
فالانتماء القبلي في المجتمعات العربية كان ولا يزال يشكل أقوى  
الانتماءات وأثبتها عبر العصور التاريخية منذ الجاهلية وحتى الآن.  
فالدولة العربية الإسلامية كما يرى الجابري - بنيت على أساس قبلي،  
وكانت بمثابة (نظام كونفدرالي) وحّد القبائل تحت رايته من دون أن  
يفككها. واستمرت القبيلة بطبيعتها الحال لتكون الانتماء الأقوى رغم  
تقلب الأحوال والأزمان، ولم تتغير الأحوال حتى مع ظهور الدولة العربية  
الحديثة، فمعظم الدول العربية تقوم على أساس قبلي عشائري كما هو  
الحال في دول الخليج والأردن والمغرب وسوريا والعراق وليبيا والسودان  
وغيرها.

### دور المثقفين ورجال الدين والإعلام في نشر ثقافة التعصب:

استجوبت الدراسة آراء الطلاب واتجاهاتهم نحو التعصب  
بتجلياته المختلفة في المجتمع الكويتي، واستطاعت أن تقدم إجابات عن  
مختلف الأسئلة التي طرحتها واختبار الفرضيات التي قدمتها في مجال  
العلاقة بين متغيرات الدراسة وآراء الطلاب في التعصب. ويمكن تقديم  
صورة مختصرة لنتائج الدراسة في الآتي:

1- يعاني المجتمع الكويتي من التعصب القبلي والعائلي والطائفي

عن ممارسة فعالاته عند نقطة محددة، قد تبدأ من نقطة ما، لكنها  
تتفجر ما لم تتم محاصرتها بأسرع وسيلة). (إنها تمارس تفتيتها لكل  
ما هو بقاء حتى تصل إلى الفرد نفسه فتشطره. وكما تشطر الذرة  
فينفصل الإلكترون عن النواة مولداً طاقة مرعبة إذا خرجت عن حدود  
التحكم، فإن الطائفة تشطر الإنسان نصفين، إلى قوتين متقاتلتين  
تتجان تبادلاً للسيطرة والعنف في علاقة يهيمن فيها الذكر على الأنثى  
(الأقوى على الضعيف هيمنة تكون مطلقة). إنها كالنار التي تشب في  
الهشيم، فهي تجتاح بلهيبها كل شيء وتستفعل دون انقطاع إن لم  
تحاصر، ويغمر لهيبها في الحال قبل أن تستفعل وتحدث الكارثة.

ويتجسد التعصب الطائفي في صورة فكر مغلق ذاتي التوليد  
والاكتماء، مصدره مسلمات موروثة تملو في نظر أصحابها فوق النقد  
والنقض والتشكيك والتجريب. والفكر لا يتطور وفق  
المتغيرات الثقافية والمؤثرات الاجتماعية الاقتصادية  
والمعطيات العلمية، لأنه فكر الجمود والثوق واليقين  
والتصلب والتجمد، إنه صيغة رفض لكل ما هو إنساني  
وأخلاقي حيث يضع العقيدة الفكرية التي ينافح عنها  
في مقام الدين، ويجعل المساس بها مساساً لا يغتفر  
بالمقدس والمتعالي.

ويقوم التعصب الطائفي في النهاية على ولاء  
الفرد الكلي أو الجزئي للقيم والتصورات الطائفية أو  
المذهبية، وينبثق من صلب التعصب الديني ويمتزج معه. ففي أحيان  
كثيرة تكون المذاهب أساس تصنيف البشر في المجتمع الواحد إلى  
طوائف عدة متصارعة ومتناحرة.

### التعصب القبلي:

عرف العرب بانتمائهم القبلي وعصبيتهم القبيلة التي صارت  
مضرب الأمثال. ويتضمن الشعر العربي صوراً للتعصب القبلي يفوق  
حدود كل وصف لمعنى التعصب ودلالته في صيغته القبيلة. واستطاع  
الشاعر العربي قُريظ بن أنيف أن يسجل ملحمة شعرية في وصف  
التعصب القبلي بقوله:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي  
بنو القبيطة من ذهل بن شيبانا  
قوم إذا الشر أبدي ناجذيه لهم  
طاروا إليه زرافات ووحداننا  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم  
في اللائمات على ما قال برهاننا  
وفي هذه الأبيات وصف عميق بليغ لمعنى التعصب القبلي في  
المجتمعات العربية الجاهلية.

والأمثلة الشعرية التي تستكشف معاني التعصب ودلالاته كثيرة في

## الذين ينشرون التعصب والكراهية هم أكثر الناس جهلاً بالقيمة الإنسانية العليا

ومن المأساوي اليوم أن يتنكر المثقفون في العالم العربي والخليجي لرسالتهم الأخلاقية في نشر التسامح وقيم المواطنة ورفض كل أشكال الانقسام والتشردم والتصادم وبناء الوحدة الوطنية والروحية في نفوس أبناء الأمة. لقد تحولت فتات من المثقفين إلى داء بدلاً من أن يكونوا دواء للأمة، وتحولوا إلى قتلة للنفوس والضامير بدلاً من أن يكونوا المنعنين بحماية النفوس وضمان أمنها الإنساني والأخلاقي. وأين هم هؤلاء المثقفون من تعريف (كانت) للثقافة، حيث يقول عن الثقافة (إنها مجموعة من الغايات الكبرى التي يمكن للإنسان تحقيقها بصورة حرة وتلقائية انطلاقاً من طبيعته العقلانية، وبهذا تكون الثقافة في نظر (كانت) أعلى ما يمكن للطبيعة أن ترقى إليه). فالثقافة لا تكون ثقافة حقيقية ما لم تكن غائبة وعاقلة وإنسانية وخلقة. أما هؤلاء الذين ينشرون التعصب والكراهية والبغضاء فإنهم أكثر الناس جهلاً بالقيمة الإنسانية العليا للثقافة والإنسان والقيم الأخلاقية.

### توصيات الدراسة:

- بناء على النتائج التي تمّ التوصل إليها في هذه الدراسة يمكن بناء التوصيات التالية:
- توصي الدراسة بتبني استراتيجيات تربوية متكاملة للحد من ظاهرة التعصب في المجتمع بمختلف أشكاله وتجلياته.
- بناء استراتيجيات إعلامية تضع حدوداً للممارسات الصحفية في مجال نشر التعصب والكراهية.
- توصي الدراسة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بتريخ فكر ديني مضاد للطائفية والمذهبية في المجتمع ووضع حدود لممارسات رجال الدين التعصبية في هذا المجال.
- إجراء دراسات معمقة حول إشكالية التعصب في المجتمع الكويتي وغيره من المجتمعات الخليجية. وإجراء دراسات مقارنة بين المجتمعات الخليجية والعربية في هذا الخصوص.
- ولأن ظاهرة التعصب خطيرة ومنافية لكل موجبات الحياة الوطنية توصي الدراسة بالعمل على الدعوة إلى مؤتمر وطني يتناول فيه أبعاد هذه الظاهرة، ويرسم الاستراتيجيات الممكنة لاستئصال شأفتها والتأثير في عوامل وجودها ●

«استاذ علم الاجتماع التربوي في جامعتي دمشق والكويت

والديني، كما يعلن ٨٥,٥ في المائة من الطلاب أفراد العينة.  
٢- يبدي الطلاب اتجاهات إيجابية نسبياً في ما يتعلق بدور الدولة في إزالة التعصب ومحاربه، حيث يعلن ٦٥,٨ في المائة منهم أنه يجب على الدولة إزالة التعصب ومحاربه بمختلف أشكاله الطائفية والقبلية.  
٣- وفي ما يتعلق باتجاهات الطلاب أنفسهم إزاء التعصب يعلن ٨٨,٩ في المائة منهم تمنياتهم بزوال التعصب واجتثاثه من المجتمع. وقد بينت الدراسة تأثيراً متغير الانتماء الاجتماعي والسنوات الدراسية في مواقف الطلاب من التعصب، حيث أفرزت الدراسة فروو قاً إحصائية وفق هذين المتغيرين: فاتجاهات الطلاب الحضر ضد التعصب أكبر منها لدى البدو، وطلاب السنوات العليا أشد توجهاً نحو إزالة التعصب من طلاب السنوات الدنيا (الأولى والثانية).

والسؤال المركزي الذي طرحناه في هذه الدراسة: من يغذي هذا التعصب ويحييه؟ ومن هي الفئات التي تبت هذا التعصب وتشجع على ممارسته وتميحه؟ فهناك كثير من الشكوك تدور حول مؤثرات ثقافية مصدرها رجال السياسة والفكر والدين والثقافة. ومن أجل اختبار هذه الرؤية حول مؤثرات التعصب ثقافياً تضمنت الاستبانة ثلاثة بنود كاشفة حول تأثير المثقفين ورجال الدين ورجال الإعلام في تغذية التعصب وبتة في المجتمع. ومن أجل تقديم صورة شاملة مقارنة لهذه الأسئلة يأتي (الجدول التالي) حول مصادر التعصب ثقافياً ودينياً وإعلامياً.

وبين (الجدول المذكور) أن المثقفين هم أكثر من ينشر التعصب في المجتمع (٨٨.٨ في المائة)، يليهم رجال الإعلام (٨٥.١ في المائة) في المرتبة الثانية، ويأتي رجال الدين في المرتبة الثالثة (٨٣.٤ في المائة). وبصورة عامة يعلن (٨٥,٨ في المائة) من الطلاب أن رجال الدين والمثقفين والإعلاميين يبتون التعصب في المجتمع ويتحملون مسؤوليته. ومن المؤسف اليوم أن تقوم النخبة أو الصفوة في المجتمع بنشر فكر التعصب وتعزيز مساراته في حنايا حياتنا الاجتماعية والثقافية. وهنا يحضرني قول الشاعر في وصف هذه الظاهرة:

أمتي هل لك بين الأمم  
منبر لسيف أو لكمة  
أمتي كم صنم مجدته  
لم يكن يحمل طهر الصنم  
لا يلام الذئب في عدوانه  
إن يك الراعي عدو الصنم